ثقافة التسامح

إن الثقافة هي: مجموعة النظم الاجتماعية، والمظاهر الفنية، والدينية، والفكرية التي تتميز بها مجموعة، أو مجتمع بالنسبة للآخر.

هكذا عرفها لاروس الفرنسي، وقد حاول عالما الإنثروبولوجيا الأميركيان كروبر وكلايكون حصر أهم التعريفات لها سنة ١٩٥١م، فوجدا أنها تزيد عن مائة وخمسين تعريفاً.

وتقول موسوعة دار الشروق: إن مفهوم الثقافة يشير إلى كل ما يصدر عن الإنسان، من إبداع، أو إنجاز فكري، أو أدبي أو فني أو علمي.

ويرى البعض أنها حصيلة النشاط الاجتماعي في مجتمع، وأساليب الحياة، والسلوك، وأنماط القيم السائدة فيه.

والمعنى الإنثربولوجي الواسع الباحث عن المعتقدات والمؤسسات والعوائد والتقاليد لكل مجتمع، وعلاقات الكائنات البشرية بعضها ببعض، هو المعنى الأولي.

obeikandl.com

ولعل كل واحد من التعريفات السابقة يشكل جزءاً من الصورة الذهنية للثقافة، وحيث إن التعريف الأخير يهتم بسلوكيات الإنسان، وعلاقاته، وأنماط القيم الموجهة للسلوك، فهو بالتأكيد ما نعالجه هنا.

أما **التسامح** فهو مصدر لتسامح بمعنى تساهل.

يقول ابن منظور: في مادة"سمح" التسامح والسماحة الجود...

يقال: سمح وأسمح إذا جاد وأعطى عن كرم وسخاء...

وفي الكلام المشهور: السماح رباح. أي المساهلة في الأشياء تربح صاحبها.

وسمح وتسمح: فعل شيئاً فسهل فيه".

والتسامح لغة هو الجود والعطاء عن كرم وسخاء وهو المساهلة.

والجود هو: مبدأ إفادة ما ينبغي لا بعوض، فلو وهب واحد كتابه من غير أهله، أو من أهله، لغرض دنيوي أو أخروي لا يكون جوداً[1].

والمسامحة المساهلة وزناً ومعنى كما في تاج العروس.

---

(١) انظر لسان العرب لابن منظور، مادة "سمح".

obeikandi.com

والمسمح المتسع قال في أساس البلاغة: ويقال: عليك بالحق فإن في الحق مسمحاً أي متسعاً ومندوحة عن الباطل. قال ابن مقبل:

وإِنِّيَ لأَسْتَحْيِي وفي الحَقِّ مسْمَح إِذَا جَاءَ بَاغِي الخَيـرِ أَنْ أَتَعَـذَّرَا

وفي الحديث عن أبي أمامة:" بعثت بالحنيفية السمحة" أي السهلة الميسرة رواه أحمد في المسند وله شاهد من حديث عائشة: لتعلم اليهود أن في ديننا فسحة إني أرسلت بحنيفية سمحة" وعلق عليه ابن القيم: إنها حنيفية في التوحيد سمحة في العمل".

وذكره البخاري بقوله: باب الدين يسر وقول النبي ﷺ: أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة"[١]. وورد في مصنف عبد الرزاق تفسيره مرفوعاً بأنها الإسلام الواسع.

فهذه الأحاديث تعطي للسماحة معنى اليسر والسهولة والسعة مما يدل على رفع الأصر والحرج والبعد عن التشدد.

فالتسامح معنى فوق العدل، فالعدل إعطاء كل ذي حق حقه، أما التسامح فهو بذل الخير لا في مقابل، فهو من قبيل الإحسان الذي يمثل قمة البرِّ وذروة سنام الفضائل.

(١) وخرجه في الأدب المفرد.

obeikandl.com

إن التسامح هو التسامي عن السفاسف إنه عفة اللسان عن الأعراض وسكون اليد عن الأذى.

"فالمسلم من سلم الناس من لسانه ويده والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله"(١).

إنه طهارة القلب ونقاء الباطن من الأحقاد والضغائن والأفكار المنحرفة.

"اللهم اسلل سخيمة صدري" كما جاء في الحديث.

والسخيمة والحسيكة والكتيفة: الحقد.

التسامح: التواضع العزيز: "من تواضع لله رفعه"، وعكسه الكبر: "الكبر بطر الحق وغمط الناس".

التسامح: الإيثار ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾ [الحشر: ٩].

التسامح:"إطعام الطعام وإفشاء السلام على من عرفت ومن لم تعرف".

إذ أنتَ تُعطِي حينَ تُسأَل سامَحت   لكَ النَّفسُ واحْلَوْلاَكَ كلُّ خليلِ

---

(١) ابن حبان والنسائي وأحمد والبيهقي وأبو يعلى والطبراني.

obeikandl.com

إنه التجاوز عن الزلات والتجافي عن الهفوات.

أما الغربيون فإن كلمة Tolerance تعني: احترام حرية الآخر وطريقة تفكيره وتصرفاته وآرائه السياسية والدينية.

والمعنى الثاني: حرية محدودة ممنوحة لشخص في بعض الظروف دون نص قانوني.(١)

وصدر إعلان منظمة اليونسكو المنظمة الدولية للتربية والعلوم والثقافة في دورتها الثامنة والعشرين لمؤتمرها العام المنعقد في باريس من ٢٥اكتوبر ٦ نوفمبر ١٩٩٥م الذي كان تاريخ الإمضاء على هذا البيان من طرف دول العالم التي أعلنت يوم ١٦ نوفمبر يوماً للتسامح ورفض التعصب.

وهذا الإعلان مكون من مقدمة وستة فصول.

أما المقدمة فكانت تذكيراً بما ورد في ميثاق الأمم والإعلان العالمي لحقوق الإنسان وغيرهما من المواثيق والاتفاقات وعددها خمس عشرة وثيقة.

وأشارت المقدمة إلى الجزء الذي يسببه تصاعد التعصب والإرهاب والعنف وكره الأغيار والقومية العدوانية والعنصرية

---

(١) هذا ما تنص عليه المعاجم يراجع لاروس.

obeikandi.com

واللاسامية والإقصاء والتهميش والتمييز ضد الأقليات القومية والعرقية والدينية واللغوية واللاجئين والعمال المهاجرين والفئات الهشة وممارسة العنف ضد من يعبر عن رأيه.

يتكون الإعلان من ستة فصول:

الفصل الأول: مفهوم التسامح باعتباره احتراماً وقبولاً وتقديراً للثروة والتنوع لثقافات عالمنا هذا.

الفصل الثاني: دور الدولة، فعلى مستوى الدولة يتطلب العدالة والنزاهة في سن النظم والقوانين وكذلك في تطبيقها وممارسة السلطة القضائية والإدارية.

الفصل الثالث: الأبعاد الاجتماعية، ذكر بضرورة التسامح في العالم المعاصر حيث نعيش في عصر تميز بعولمة في الاقتصاد وبسرعة في الحركة والاتصالات وبالاندماج والاعتماد المتبادل وبالنزوح والتنقل للمجموعات على نطاق واسع والتمدن والتغير في أشكال النظم الاجتماعية فلم يبق جزء من العالم غير متأثر بالتنوع.

فتصاعد التعصب والمواجهة يشكل تهديداً محتملاً لكل منطقة فالتسامح ضرورة للأفراد وفي نطاق الأسرة والجماعة.

obeikandl.com

فتنمية التسامح والتدرب والتمرن على الانفتاح الذهني وحسن الاستماع والإنصات المتبادل والتضامن يجب أن تسود كل هذه المعاني في المدارس والجامعات ووسائل التربية.

يجب تكوين مجموعات للدراسة والبحث والتنسيق لتقديم إجابة للمجموعة الدولية على هذا التحدي العالمي(عدم التسامح).

الفصل الرابع: مكرس للتربية والتعليم باعتبار التربية والتعليم أفضل وسيلة لمحاصرة عدم التسامح والتعصب والتزام الدول بالقيام بما يلزم في هذا الصدد بما في ذلك وسائل البحث العلمي والاجتماعي للتربية.

الفصل الخامس: تلتزم الدول بتنمية التسامح.

الفصل السادس: تقرير يوم للتسامح من أجل تعبئة الرأي العام.

أشير إلى أن هذه شذرات فقط من إعلان التسامح الصادر عن منظمة اليونسكو اقتبستها من الأصل الفرنسي للإعلان وأردت من خلاله أن أنبه إلى الإلحاح الذي اتسم به هذا الإعلان الذي صدر منذ عشر سنوات أي قبل الحادي عشر سبتمبر ٢٠٠١م.

obeikandi.com

قدم كارل بوبر تحليلاً معمقاً لمفهوم التسامح وانطلق في ذلك من التعبير الذي قدمه فولتير للتسامح؛ إذ يقول: إنه ما من أحد بأوضح مما فعله فولتير ولا أحد ضاهى فولتير في روعة التعبير عنه.

حيث يكتب: وما هو التسامح؛ إنه نتيجة ملازمة لكينونتنا البشرية، إننا جميعاً من نتاج الضعف، كلنا هشون وميالون للخطأ، لذا دعونا نسامح بعضنا، ونتسامح مع جنون بعضنا، بشكل متبادل.

وذلك هو المبدأ الأول لقانون الطبيعة، المبدأ الأول لحقوق الإنسان كافة.

لا شك في أن مرافعة فولتير كانت موفقة، ومتماسكة:" وهي مؤسسة على نظرة سقراطية تقول: إنني أعرف أني لا أعرف، وبالكاد أعرف هذا.. وفي هذا ما يكفينا للمطالبة بضرورة أن نتسامح مع بعضنا، بشكل تبادلي، لكنه لا يكفي للدفاع عن التسامح، إذا شُنَّ ضده هجوم ما".

فثقافة التسامح: تعني وجود قيم وتصورات، تفرز ضوابط سلوكية، من شأنها أن تشيع الأمن في النفوس، وتجافي الجنوح إلى العنف.

ولنغرس ثقافة التسامح في النفوس، يجب اتخاذ السبل بكل الوسائل التثقيفية، وفي مقدمتها التعليم والتربية، والإعلام الجماهيري، لإيجاد تلك القيم، والتصورات، لضبط وكبح جماح النفوس الميالة إلى العنف، وترجيح كفة التسامح، وحسن تقبل الغير، وباختصار إيجاد الروح الاجتماعية، والتعايش البناء بين أفراد المجتمع.

وهي بذلك تقابل ما يسمى بثقافة العنف.

ومعنى ذلك أن المثل والقيم التي يتلقاها، ويلقنها أفراد المجتمع، عن طريق القنوات والأدوات التثقيفية، في مختلف مراحل التعليم، ووسائل الإعلام بشتى أشكالها، وغيرها من وسائل الاتصال الجماهيري، كالخطب، والأناشيد ذات مضمون رصين متسامح، ومتعقل، لا يخرج على النهج العام السائد، والأعراف المقبولة، لشحن العواطف، وإلهاب المشاعر، دون وزن للعواقب، ولا مبالاة بالنتائج.

إن هذا الكلام عام في كل مجتمع، مهما كانت فلسفته الحياتية.

أما بالنسبة للمجتمع الإسلامي، فإن الميزان الشرعي هو ميزان الوسطية، التي لا إفراط فيها ولا تفريط، هو نبذ المبالغة والمغالاة، والنظر في العواقب والمآلات.

obeikandi.com

"فالدين واسطة بين الغلو والتقصير" كما يقول التابعي الجليل الحسن البصري وكذا قال ابن عباد النفزي: ولا شيء أشد على النفس من متابعة الشرع وهو التوسط في الأمور كلها، فهي أبداً متفلتة إلى أحد الطرفين لوجود هواها فيه.

ويقول الشاطبي: الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الأوسط، الأعدل، الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه، الداخل تحت كسب العبد، من غير مشقة عليه، ولا انحلال، بل هو تكليف جار على موازنة تقتضي في جميع المكلفين غاية الاعتدال"(١).

وميزان الشرع هو ميزان المصالح والمفاسد، يضعها في كفتيه، فيرجح الأصلح، ويدرأ المفسدة، فكما يقول العلامة ابن القيم: الشريعة مصلحة كلها، وعدل كلها، ورحمة كلها، فما خرج عن المصلحة إلى المفسدة، وعن العدل إلى الجور، وعن الحكمة إلى العبث، وعن الرحمة إلى ضدها، فليس من الشريعة".

كيف نرسخ ثقافة المصالح والعدل والحكمة والرحمة، ضد المفاسد والجور والعبث والانتقام، كما يرسخ الإسلام المحبة بين الناس، ففي الحديث: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتى يُحِبَّ لأَخِيه مَا يُحِبُّ لنَفْسِهِ**»(٢).

---

(١) الشاطبي، ٢/١٦٣ .

(٢) متفق عليه.

obeikandi.com

يقول الحافظ ابن رجب في شرحه لهذا الحديث: إن الأخوة الواردة في هذا الحديث تشمل الأخوة في الإنسانية.

وقرر العدل بين الأفراد والأمم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] قرر بذل المعروف، وإطعام الطعام، ودفع جزء من المال للفقراء، تكريساً للتكافل، والتضامن في المجتمع.

وشرع الحوار وسيلة للمناقشة، حول قضايا الاختلاف، حتى مع المخالف في الدين، قال تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] ، ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢٥]، ونهى عن المراء، وهو الجدال الذي يقصد به الظهور على الخصم بالباطل.

ونهى عن سوء الظن بالناس ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

ونهى عن الغيبة، والنميمة والتجسس ﴿وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً﴾ [الحجرات: ١٢]. ودخول بيوت الناس بغير إذن، بما فيهم المخالف في الدين، فقد روى البيهقي نهي النبي ﷺ عن دخول بيوت أهل الكتاب إلا بإذن، وأكل ثمارهم إلا أن يعطوها.

وأمر بالرفق: «إِنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ ولا يُنْزَعُ مِنْ شيءٍ إِلاَّ شَانَهُ».

وأقام العلاقة مع المخالف في الدين، على المودة، والبر، ما لم يعتد علينا ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ [الممتحنة: ٤٦] يقول ابن العربي المالكي: أي تعطوهم قسطاً من المال.

وقال تعالى ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ [البقرة: ٢٥٦] وأمر بالسلام: «**وأَنْ تَقْرأَ السَّلامَ على مَنْ عَرَفْتَ ومَنْ لَمْ تَعْرِفْ**». وهو جزء من حديث صحيح.

وأمر بالمصافحة: «**مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيَتَصَافَحَانِ إِلا غُفِرَ لَهُمَا قَبْلَ أَنْ يَتَفَرَّقَا**». «**تَصَافَحُوا يَذْهَبِ الغِلُّ وتَهَادَوا تَحَابُّوا وتَذْهَبِ الشَّحْنَاءُ**».

وأمر باللقاء بوجه طلق كما في حديث الترمذي. وتنفيس الكرب، والتيسير على المعسر، وستر المسلم، وعونه، كل ذلك موعود عليه بالثواب المجانس. والحديث مشهور في صحيح مسلم.

وأمر برأب الصدع وإصلاح ذات البين:"ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا بلى قال: إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة".

ونهى عن ترويع الناس بأن ترفع عليهم سلاحاً، أو بأخذ متاعهم ولو مزاحاً: "من حمل علينا السلاح فليس منا". حديث متفق عليه.

وأمر بالتراحم: "ليس منا من لم يرحم صغيرنا ولم يوقر كبيرنا".

وأمر بحسن الخلق: "إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم".

ثم إن الجرائم في الإسلام -زيادة على العقاب الدنيوي- هي أفعال محرمة شرعاً، بمعنى أن ثقافة المسلم تحجزه عن ارتكاب الجريمة لا خوفاً من عقوبة فقط ولكن خوفاً منه تعالى:"كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه". "لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض".

فهذا نهي عن كل ما ينغص الأمن من اعتداء على النفس والمال والعرض والاقتتال الداخلي مما يشكل رقابة ذاتية تقوم في نفس المؤمن.

وأخيراً: فإن الإسلام دان كل أسباب التطرف فقد نهى عن التكفير وقال إن تكفير المسلم كقتله(١).

(١) من حديث للبخاري: ... ومن قذف مؤمنا بكفر فهو كقتله. وله لفظ آخر: ومن رمى مؤمنا بكفر فهو كقتله. صحيح البخاري ٦/٢٤٥١.

obeikandi.com

ونهى عن التشدد في حديث أنس:"لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم".

ونهى عن الغلو في الدين وهو المعبر عنه بالتطرف ففي حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- عنه عليه الصلاة والسلام: "إياكم والغلو في الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين".[١]

ونهى عن التنطع وهو كالغلو التجاوز للحدود في الأقوال والأفعال ففي حديث ابن مسعود: "هلك المتنطعون قالها ثلاثاً".

وهذه الألفاظ الثلاثة تعني الابتعاد عن الاعتدال في الأفكار والأقوال وكل ذلك يخالف منهج الوسطية ويؤدي إلى التعصب والفتنة وهي مصطلحات يقابلها التطرف والأصولية Fundemantalisme وهو مصطلح كان مرتبطاً في أذهان الأوروبيين بالكنيسة الكاثوليكية قبل تصديره إلينا.

ففي معجم لاروس ١٩٧٩ قال: إنه استعداد فكري عند بعض الكاثوليك الذين يكرهون التكيف مع ظروف الحياة الحديثة.

وهو مصطلح تختلف المعاجم في تعريفه وفي بعض الأحيان يتطور مع طبعات هذه المعاجم.

---

(١) قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. المستدرك على الصحيحين ١/ ٦٣٧ .

obeikandi.com

فإذا كان مجرد إحراج الناس بالتطويل في الصلاة يعتبر تنفيراً من الدين كما ورد في الحديث الصحيح: «**إن منكم منفرين**». وقال ﷺ لمعاذ: «**أفتان أنت يا معاذ**».

فإن الإسلام براء من كل تطرف مع أن التاريخ الإسلامي قد عرف غلاة ومتطرفين ومتنطعين إلا أن تيار أهل السنة والجماعة ظل متمسكاً بالمنهج الوسط الذي لا إفراط فيه ولا تفريط.

وما فتئ العلماء بالمرصاد لكل غلو في الاعتقاد أو الأحكام العملية الفقهية لتصويب الخطأ وتوضيح الجادة التي كان عليها سلف هذه الأمة كعبد الله بن عمر وأنس بن مالك وغيرهما من كبار الصحابة الذين أدركوا عصر الخوارج وأيام ولاة السوء وما سجل على أحد منهم خروج لشدة فقههم في الدين ويقظتهم للعواقب والمآلات ومعرفتهم بوجوب تعظيم شأن وليّ الأمر.

كل ذلك يمثل ثقافة تسامح كاملة كيف نترجمها في حياة الناس ليعودوا إلى صوابهم حكاماً ومحكومين نخبة وجماهير إلى كلمة سواء إلى حد أدنى من الوئام متحابين غير متنافرين ولا متنابذين إنها مهمة صعبة في جو ثقافة العنف المتبادل وفي جو أصولية غربية ضاغطة بكل ثقلها لإيجاد الشروخ في جدار وحدة الأمة لتنفذ منها وهي بذلك تريق الزيت على نار الفتنة فلا تخبو نار حتى تشب أخرى.

obeikandi.com

يقول فوكوياما في كتابه"نهاية التاريخ": إن الأصولية الإسلامية ناشئة عن الضغط الذي تمارسه القيم الغربية".

مظاهر التسامح:

أولا: أن الإسلام يعتبر البشر جميعا إخوة ومعلوم أن التاريخ الإنساني عرف حروبا كثيرة بسبب الاختلاف العرقي.

والإسلام يعترف لهم بحقهم في الاختلاف ﴿**وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ..**﴾ [هود: ١١٨].

ثانياً: اعترف الإسلام للآخرين بحقهم في ممارسة دينهم و معلوم أن التاريخ البشري إنما هو سجل للحروب الدينية.

ثالثاً: اعتبار الحوار والإقناع الوسيلة المثلى ﴿**وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [النحل: ١٢٥].

رابعاً: اعتبار أصل العلاقة مع الآخرين هي المسالمة تقدم على بساط البرّ والقسط والإقساط.

خامساً: تحديد أسباب الحرب بأنه الاعتداء وليس الكفر كما يقول ابن تيمية قائلاً إنه قول الجمهور الذي يدل عليه الكتاب والسنة والاعتبار ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ**﴾ [البقرة: ١٩٠].

obeikandl.com

لعله يتعين علينا أن نربي ناشئتنا على القيم الأكثر مقاربة. كما يتعين على الحضارة الغربية أن تكون أكثر عدالة وتوازنا حتى نلتقي عند نقطة وسط.

و إذا كان التعصب يعمي ويصم فإن المقياس الصحيح الذي يمكن أن يحاكم من خلاله سلوك أي حضارة في موقفها من الحضارات الأخرى هو سلوكها عندما تكون منتصرة.

والسلوك المتعصب يلبس أشكالاً ويتشكل ألواناً فقد عرف التاريخ الإبادة المنظمة للآخر والتهجير الجماعي لا لسبب سوى أنه آخر. ولعلنا نذكر بعض الأمثلة من ذلك أثناء استعراضنا موقف الإسلام.

كما عرف التاريخ ألوانا أخرى من التعصب تتمثل في حرمان الغير من حقوقه المدنية ومن حريته الشخصية أو الدينية كما تأخذ شكلاً آخر يتمثل في رفض ما عند الغير من آراء أو قيم حتى ولو كانت نافعة.

وسنقدم شهادات كتاب غربيين تثبت بما لا يدع مجالا للشك أن الإسلام لم يكن متعصبا بأي معنى من المعاني المشار إليها.

فهو كما يقول -بحق- توماس ارنولد: لو اختار الخلفاء المسلمون تنفيذ إحدى الخطتين - الإغراء أو الاستئصال - لاكتسحوا

المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها فردندو و ايزابلا دين الإسلام من الأندلس أو التي جعل بها الويس الرابع عشر المذهب البروتستانتى مذهباً يعاقب عليه متبعوه في فرنسا أو بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مبعدين من إنجلترا طيلة ثلاثمائة وخمسين سنة"(١).

ويمكن للمسلمين كما يقول أحد الغربيين أن يفخروا بأن النبي ﷺ لما فتح مكة لم يؤذ أحداً بل أمن أهلها مع ما كانوا عليه من العداوة و الترات والحروب ضده بل قال كلمات مضيئة: اليوم يوم المرحمة اليوم أعز الله فيه قريشا. وقال لهم وهو واقف بباب الكعبة وقريش حوله وجوم من الرهبة: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وإن سياسة التسامح الديني التي سارت عليها الحكومات الإسلامية نحو رعاياها المسيحيين في أسبانيا وحرية الاختلاط بين المتدينين قد أدت إلى شيء من التجانس والتماثل بين الجماعتين وقد كثر التصاهر بينهم.

وقد شكي البابا أدريان الأول من هذا الوضع من الإلفة بين الكاثوليك والمسلمين"(٢).

---

(١) توماس آرنولد، الدعوة إلى الإسلام ص٩٩ .

(٢) المرجع نفسه، ص١٥٩ .

obeikandi.com

تلك بعض الشهادات تثبت أنه لا يمكن لحظة واحدة أن يفكر المرء في أن الإسلام كان يريد القضاء على الديانات بل إن نصوصاً تشير بشيء من الرضا إلى استمرار بعض الحضارات والإشادة ببعض فضائلها قال تعالى عن النصارى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ [المائدة: ٨٢].

وبهذا الصدد فإن شهادات غربية عن تسامح المسلمين تكفي للتأكد من أن الممارسة الميدانية للمسلمين كانت متسامحة إلى أقصى الحدود بل إن النصارى الأرثوذكس كانوا يفضلون أن يعيشوا بين المسلمين على أن يعيشوا تحت حكم الكاثوليك وهم إخوانهم في المسيحية.

فيكتب تاجر إنجليزي كان يعيش في تركيا القرن السادس عشر وتحديدا ١٥٧٨م واسمه ريتشارد ستيير مقارنة بين معاملة الأتراك المسلمين للأرثودكس وبين معاملة الأسبان الكاثوليك لهم قائلاً: وعلى الرغم من أن الأتراك بوجه عام شعب من أشرس الشعوب فقد سمحوا للمسيحيين جميعاً للإغريق منهم واللاتينيين أن يعيشوا محافظين على دينهم وأن يصرفوا ضمائرهم كيف شاؤوا بأن منحوهم كنائسهم لأداء شعائرهم المقدسة في القسطنطينية وفى أماكن أخرى كثيرة جدا على حين أستطيع أن أكد بحق بدليل اثنتي عشرة سنة قضيتها في أسبانيا أننا لا نرغم على مشاهدة

حفلاتهم البابوية فحسب بل إننا في خطر على حياتنا وممتلكاتنا"[1].

ويصف مكاريوس وهو يشكو من معاملة البولنديين الكاثوليك للأرثوذكس البولنديين بأنهم ملعونون وأنهم مردة الرجس وأن قلوبهم متحجرة وذلك بما أظهروه من قسوة في معاملة المسيحيين قائلاً: أدام الله بقاء دولة الترك خالدة إلى الأبد فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم بالأديان سواء كان رعاياهم مسيحيين أم ناصريين يهودا أو سامرة أما البولنديون -الكاثوليك- الملاعين فلم يقنعوا بأخذ الضرائب و العشور من إخوان المسيح بل وضعوهم تحت سلطة اليهود الظالمين أعداء المسيح الذين لم يسمحوا لهم حتى بأن يبنوا كنائسهم ولم يتركوا لهم قسساً يعرفون أسرار دينهم"[2].

معاملة الأتراك العثمانيين لرعاياهم المسيحيين: ولما استولى محمد الفاتح على القسطنطينية ١٤٥٣م أعلن أنه حامي الكنيسة الإغريقية فجرم اضطهاد المسيحيين تجريماً قاطعاً ومنح البطريق مرسوماً يمنحه وأتباعه ومرءوسيه من الأساقفة حق التمتع بكل الامتيازات القديمة والموارد والهبات التي كانوا يتمتعون بها في

(١) يراجع سير توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام ص١٨٢ .

(٢) المرجع نفسه، ص١٨٣ .

obeikandi.com

العهد السابق وقد تسلم حينايودس أول بطريق بعد الفتح الإسلامي من يد السلطان عصا الأسقفية ومعها كيس مليء بالذهب وحصان فاخر كان يركبه وتحفه به حاشيته.

ولم يقتصر المسلمون على معاملة رئيس الكنيسة على ما كان يلقاه من الأباطرة المسيحيين بل أعطوه سلطة واسعة فكان يفصل في القضايا بين المسيحيين ويحكم بالغرامات وبالسجن وبالإعدام ويفصل في شؤون العقيدة والشريعة بينهم من غير أن يخشى تدخلا من الحكومة المسلمة.

ولهم حق الاحتفال بطقوسهم الدينية على طريقتهم الخاصة"[١].

وعهد عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لأهل القدس: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم"[٢].

(١) توماس ١٧٠-١٧١والمراجع المسيحية التي ذكرها بالهامش.
(٢) الطبري ١/ ٢٤٠

obeikandl.com

وأجرى على ضعاف النصارى ومرضاهم من بيت المال كما يقول البلاذري.

وفى وصيته لم ينس أهل الذمة قائلا: و أوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يوفي لهم بعهدهم وألا يكلفوا إلا طاقتهم. كما يقول ابن سعد.

وأما الجزية فإنها في مقابل الحماية ومما يدل على ذلك رسالة أبى عبيدة إلى أهل مدن الشام المفتوحة لما بلغه حشد هرقل للجيوش آمراً أن يردوا إلى النصارى جزيتهم خوفاً من عجز المسلمين عن حمايتهم من جيوش هرقل. وكتب إلى النصارى: إنما رددنا عليكم أموالكم؛ لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم". فدعا النصارى بالبركة للمسلمين وقالوا: ردكم الله علينا ونصركم عليهم فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا وأخذوا كل شيء بقي لنا"[١].

ويقول الباحث الألماني توماس شفلين وهو يقدم صورة عن الإسلام ما يلي: لم يكن العنف فضيلة بحد ذاته بل كان الإسلام

(١) انظر كتاب الخراج لأبي يوسف.

obeikandi.com

بالأحرى مسخراً لتهذيب العنف القبلي العربي بإخضاعه للقوانين الإلهية.

وكما أوضح غولدتسيهر (١٨٥٠-١٩٢١) فإن مصطلح الجاهلية الذي كان يشير عادة إلى جهل المجتمع القبليّ قبل الإسلام له في الأساس معنى أوسع من ذلك وهو "الهمجية أي السلوك غير المتحضّر والمتهور والمتوحش لأولئك الأشخاص الذين لم يتأثروا بالوحي والرحمة الإلهيين."

وكما في التوراة يقر القرآن أن حياة الإنسان هي من القيم الأساسية للمجتمع:

﴿ **مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾ [المائدة: ٣٢].

إن القتل العمد للمؤمنين جريمة بشعة عقابها النار إنما المؤمنون إخوة.

وما اختلاف أعراقهم وأجناسهم بعبء وإنما هو جزء من مخطط إلهي لجعل البشر يعترف بعضهم ببعض ويعرف بعضهم بعضاً ويتنافسون في عمل الخير والصلاح.

والصدقة فيما بينهم محمودة أما الربا فمحرم وممنوع.

obeikandl.com

تجب حماية الضعفاء والمضطهدين/المظلومين.

وفي حال الصراع يجب أن يكون الانتقام مخففاً.

والقرآن يحث على الصبر والتسامح والصلح.

وأخيراً وليس آخراً يحضَ على دفع وقبول الدية وفي الحياة اليومية لا يجوز للمسلمين أن يسخر بعضهم من بعض أو ينادي بعضهم بعضاً بالألقاب ولا يجوز لهم أن يستغيب بعضهم بعضاً أو أن يتجسس بعضهم على بعض. وتجب مقابلة التحية بتحية أحسن منها أو مثلها.

ويجب دفع السيئة بالحسنة لجعل الأعداء يتحولون إلى أصحاب.

وإدراكاً منها للفوائد الواضحة للوحدة والصلح حاولت الأجيال الأولى من أمة الإسلام أن تحل خلافاتها ونزاعاتها وانشقاقاتها بتلك الروح نفسها".

فإن من الأهمية بمكان أن نعترف بأن سياسة الإسلام العقدية الأساسية تجاه غير المسلمين والمنشقين تبلورت في حقبة نجاح سياسي وليس عصر الهزائم المحبطة أو زمن العجز.

وعلينا أن نبين هنا أن النصوص والمعتقدات المقدسة عندما تقر سوف تتمتع باستقلال نسبي عن أنماط روح العصر المتغيرة والمغايرة (لطابع العصر العقلي والأخلاقي والثقافي).

obeikandi.com

ومن المؤكد أنها ستكون مفتوحة لتأويلات وتفسيرات مختلفة إلا أنه لا يمكن تغييرها أو تفسيرها أو تأويلها حسب مشيئة المفسرين.

وفي مجتمعات الشرق الأوسط ساعد دائماً تكوين موقف احترام لوحدة وحصافة ومرجعية الكتاب المقدس وتشجيعه على إقامة توازن ضد التطوعية والتعسف والاعتباطية والانتهازية عند القادة السياسيين الاستبداديين.

وقد كانت الأجيال المؤسسة للأمة في موقف يمكنها من التعامل مع الكثيرين من أعدائها بروح من العنف المتحضر قلما تجدها بين معاصريهم الأقل نجاحاً.

وأخيراً وليس آخرا فقد يكون التراث الذي نقلوه للخلف من مجموعة من الأنماط المعتدلة والأسبقيات الأخلاقية التي لا يمكن للأجيال اللاحقة الأقل نجاحاً تجاهلها والالتفاف حولها دون تشويه خطير لها نصّاً وروحاً[١].

وباختصار فلا بد من علاج بالمضادات ونعني بالمضادات الحيوية ذلك الخطاب الحي الواعي الذي يقوم على نبذ العنف وزرع ثقافة السلام والتسامح والمحبة وتقديم البدائل أمام الشباب

(١) مجلة التسامح العدد الأول.

obeikandi.com

اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً ومحاولة صرف جهودهم ونشاطهم في قنوات لصالح المجتمع ولصالح التنمية وجسر العلاقة بين مختلف الفئات وتجديد الفكر التوفيقي والمنهج الوسطي في النفوس وحشد جهود الطبقة المثقفة في الجامعات والمدارس ووسائل الإعلام لذلك.

كما يجب تقديم الدراسات الجادة في المجالات الثقافية والاجتماعية والشرعية لإقامة الحجة المضادة بالبرهان الشرعي المفهوم.

ثم إن هذه الأدوات والآليات التي ترسخ ثقافة التسامح لا ينبغي أن تكون موسمية بل يجب أن تكون دائمة ومستمرة لبلورة ثقافة تصالحية أصلية ومتفتحة تدمج العناصر الإيجابية المستوردة بالموروث الثقافي في تكامل وانسجام لا تصادمي -حسب الإمكان- في مواءمة بين العراقة والمعاصرة وبين القديم والحديث لتصل الأمة إلى تجديد ليس مرادفاً للتدمير ولا للانسلاخ ولا للانسلاب بل هو تطور إيجابي واع بذاته ومرجعيته التاريخية يحافظ على ثوابته ويحاور من خلالها مستجدات العصر في جدلية رفيعة ومصلحية براجماتية.

وهنا تطرح بإلحاح مسألة تغيير المناهج باعتبارها حجر الزاوية في ثقافة التسامح؛ إذ إن مسألة المناهج مسألة دقيقة

obeikandi.com

وحساسة ولها وقع خاص؛ لأن معالجة المواد الدينية في المناهج الدراسية لا يمكن أن تتم بعقلية خارج إطار منظومة الفكر الإسلامي وبالتالي فإن الدعوة التي أطلقت للاقتصار في المواد الدينية على القضايا التعبدية أو على أحسن تقدير على ما يتعلق بمواعظ الأخلاق لا يمكن أن تلقى رواجاً لسببين:

أولهما: أن الشريعة الإسلامية شاملة لكل نواحي الحياة وهي منظومة محكمة من القواعد والضوابط والمبادئ والأحكام التفصيلية، مغطية العقائد والأخلاق والسلوك والمعاملات في كل أبعادها، منظمة علاقة الإنسان بربّه وعلاقته بأبناء جنسه "البشر"، فكانت إيمانًا وعبادات مقرونة بالعمل الصالح، مما جعل القيم أساسًا لقوانين المعاملات، إنه تسلسل مترابط نسيج وحده بين الإيمان والعمل والمعاملة، يحقق العدالة والسعادة في حياة البشر ويجنّبهم الظلم والجور الطغيان والشقاء.

ثانيهما: أن مصادر الشريعة الإسلامية وصلت إلى المسلمين بشكل واضح ومؤكد بحيث أن أي انحراف عنها لن يجد سنداً من التأويل المقبول في حس المسلمين.

وبالمقابل: فإن التأويل المقارب الذي يجيده علماء المسلمين الراسخون والاختيار بين الأقوال والآراء سيكون الأساس الأمثل لمراجعة المناهج لتصحيح بعض المناهج واعتماد المقاربة الأكثر قبولاً

للتعايش والمعاصرة من خلال توسيع مساحة فقه المقاصد الكلية الذي يعتبر الأداة المثلى في عقلنة الخطاب والفتيا والتعامل.

إلا أنه يتعين أن نشير إلى أن مناهج التعليم تعاني عجزاً واضحاً يتجلى في انكماش مساحة الاجتهاد الفقهي مما نتج عنه عجز في مواكبة مستجدات العصر في المعاملات وضحالة الإنتاج الفكري في مجال الفلسفة والعلوم الإنسانية ومن باب أولى في التكنولوجيا والعلوم.

تلك مبررات كافية لكن يجب الإلحاح أن يكون ذلك بعيون إسلامية معاصرة.

ومن الإجحاف الذي ينافي الديمقراطية أن يقرر تغيير المناهج من الخارج وبالقياس خاصة إلى الغرب حيث تقرر كل دولة مناهجها بل في بعض الأحيان كل ولاية طبقاً لظروفها ورغبة أكثرية سكانها.

ولنضرب مثلاً واحداً هو أنه في ولاية كانساس الأمريكية نجح بالأغلبية في مجلس المدارس المعارضون لنظرية النشوء الداروينية- التي ينبني عليها النظام التعليمي في أمريكا وهي إحدى أهم أسس الإلحاد- وينتظر أن تغير مناهجها وقد تفعل ولاية أوهايو الشيء نفسه بعد أن أدخلت تحليلاً نقدياً لهذه النظرية.

كل ذلك باسم الديموقراطية.

فكيف نفرض مناهج لا تتفق والثوابت الدينية.

وبدون شك فإن الأمر يحتاج إلى رسم إستراتيجية ثقافية وكل إستراتيجية لها غاياتها وأهدافها ووسائلها وآلياتها وبرمجتها الزمنية وخططها وهي بالضرورة إستراتيجية فضفاضة ومرنة قابلة للتعديل طبقاً لنتائج التجارب الميدانية.

وذلك بإنشاء جيل مستنير متصالح مع تاريخه متعايش مع عصره.

ولهذا فلا بد من تقديم وصفة ثقافية ممزوجة بروح حضارتنا لعلاج الإشكالات المطروحة تقوم على الوسطية، وتفعيل فقه الاختلاف، والحوار مع الآخر ومع الذات، وتصحيح مفهوم الجهاد، وتصحيح مفهوم الولاء والبراء، ومفهوم التكفير.

وفي أسطر يسيرة نشرح هذه المفاهيم:

opeikandi.com